تقديم الطبعة الثانية

هذه الطبعة الثانية لكتاب «شخصيات إفريقية فى السياسة والفن»، وكانت الطبعة الأولى صدرت عام ٢٠٠٠م، وأغلب شخصيات الكتاب معاصرة، سواء ممن لا يزالون أحياء، أو ممن مضوا وبقوا شموسًا مضيئة فى تاريخ إفريقيا.

لم يكن اختيارى لهؤلاء اختياراً عشوائيّا لتوافر المادة المكتوبة عنهم، أو لأنهم مجرد رؤساء أو شخصيات شهيرة، لم يكن الاختيار لهذا أو ذاك، وإنما لأنهم شخصيات إفريقية عظيمة من حقنا ـ نحن الأفارقة ـ أن نفخر ونعتز بهم، ونسجل جهودهم كيلا يتعرضوا للتجاهل والنسيان، أو يلوث تاريخهم الناصع، كما حدث للعديد من الرموز الإفريقية الكبيرة عبر الزمان.

ولأن أغلب الشخصيات معاصرة، فقد استلزم الأمر تنقيح بعض المواد لواقع اختلف أو لأحداث تغيرت مثلما فعلت فى موضوعات: نيريرى، وكوندا، وفرح عيديد. كما استدعت الظروف حذف أجزاء من بعضها، أو تعديل صيغتها إلى الماضى ممن أصبح أصحابها فى رحاب الله.

من بين هذه الشخصيات زعامات انبثقت وتصاعدت من بين أهلها، لم تصنعهم السياسات الاستعمارية، وثبت من سلوكهم وأفعالهم أنهم مارسوا الديمقراطية، وخضعوا لرغبات شعوبهم أكثر من عديد من زعامات العالم «المتقدم» الغربى التى تتشدق بها، ومن أمثال هؤلاء جوليوس نيريرى، وكينث كاوندا.

ونيريرى أبرز زعماء الاستقلال الوطنى الذى حقق أنجح وحدة فى تاريخ إفريقيا الحديث بتوحيد زنجبار مع تنجانيقا تحت اسم «تنزانيا» التى صارت أكبر دولة فى شرق إفريقيا. تنحى نيريرى عن السلطة طواعية وبإرادته، ورغم اعتزاله الحكم ظل يسيطر على العقل الجماعى التنزانى مدة ١٥ سنة تلت ابتعاده حتى رحيله.

وكينث كاوندا أول رئيس لزامبيا خضع لمطلب الجماهير، وسمح بتعدد الأحزاب، وألغى حالة الطوارئ، وحدد موعداً لإجراء الانتخابات الحزبية، ووافق أن تعطى الدولة معونات مالية لكل الأحزاب لخوض الحملات الانتخابية على أساس المساواة فى الإمكانات، وعندما سئل عما إذا جاءت نتائج الانتخابات فى غير صالحه أجاب: «إننى ديمقراطى، وإذا قرر شعب زامبيا أن حزبى لم يعد الحزب الذى يريد أن يقوده فسيكون هذا قرارهم، وسنقبله ونصاع إليه»، وهذا ما حدث بالفعل فقد قبل كاوندا بهزيمته، ووصف الانتخابات بأنها كانت سليمة ومنظمة ونظيفة. وهذا ما ندر أن يعترف به زعماء آخرون يصدعون العالم بالتشدق بالديمقراطية . . . إن الديمقراطية سلوك وممارسات، وليست أقوالاً وأكلشيهات تلوكها الألسن.

* * *

كذلك أردت من هذا الكتاب أن أوضح أن الإفريقيين لم يكونوا أناسًا بدائيين متخلفين قبل أن يكتشفهم الأوروبيون، بل كانوا شعوبًا واعية أقاموا ممالك وحضارات تركت آثارًا باقية اكتشف القليل منها، ولا تزال تبوح بالمذهل من أسرارها.

إن الجهل بوقائع وأحداث وشخصيات التاريخ الإفريقى، وعدم معرفة الحضارات الراقية التى صنعتها الشعوب الإفريقية لا ينفى وجود هذه الحضارات، لقد كانت فى إفريقيا حضارات متميزة لكلٍّ منها طابعها الخاص، منضوية فى لواء العديد من الممالك والإمبراطوريات، وكان هناك ملوك وأباطرة كبار استطاعوا أن يمدوا نفوذهم وهيمنتهم إلى بطاح واسعة، ويفرضوا نظم حكم مركزية مستقرة، وينشئوا المسالك والممرات والطرق التجارية التى تخترق القارة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا. وإن مقارنة الحضارات الإفريقية القديمة بالحضارات الأخرى التى كانت تزامنها فى الزمان ـ وإن اختلفت معها فى المكان ـ يأتى فى صالح إفريقيا.

فى أدبيات التاريخ الإفريقى أن الأفارقة وصلوا إلى أمريكا قبل أن تطأ أقدام كولمبس أرض الأمريكات أى ما قبل التاريخ الأمريكى، فالحضارة المصرية وصلت أمريكا

حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، ووصل شعب الماندنجو مؤسس دول مالى فى غرب إفريقيا إلى هناك حوالى ١٣٠٧ بعد الميلاد، أى قبل أن تظهر رحلة كولمبس فى الأفق البعيد. ففى دراسة قام بها العالم الأمريكى «إيفان فان سرتيما» نشرها كتابًا عام ١٩٧٧م بعنوان «إنهم جاءوا قبل كولمبس» دلائل قوية تؤكد أن الوجود الإفريقى فى أمريكا كان قبل التاريخ، وأن الأفارقة وجدوا هناك فى العصور القديمة، لا بوصفهم عمالاً، ولكن بوصفهم جماعات ذات نفوذ تشغل مراكز النخب فى المجتمع، وتمد المجتمع بعناصر الحضارة التى أتوا بها من إفريقيا قبل القرن الثالث عشر الميلادى، وأن البحوث الأثرية وبحوث الحفريات أظهرت الحملات الإفريقية التى جرت عبر الأطلنطى إلى أمريكا.

وقد ذكر «العمرى» المؤرخ الإسلامى فى القرن ١٤ فى كتابه «مسالك الأبصار» أن السلطان منسى موسى أشهر سلاطين مالى حدثه عندما توقف فى القاهرة وهو فى طريقه إلى مكة للحج عام ١٣٢٤م أن سلفه قاد حملة إلى غرب إفريقيا لكشف حدود الأطلنطى. وبعد نحو ٢٠٠ سنة من هذا الكلام شهد كرستوفر كولمبس فى مؤلفه «صفحات لكرستوفر كولمبس» بذلك، وقال: إن سفنًا تجارية من غرب إفريقيا كانت تغادر شاطئ غينيا دوريًا وتبحر إلى وسط أمريكا محملة بالذهب والبضائع الأخرى مثل المنسوجات القطنية، وهى التى أدخلت فنى سبك الذهب وصهره.

وسواء كان هذا صحيحًا أو كان قولاً مبالغًا فيه أن الأفارقة اكتشفوا أمريكا قبل التاريخ الحديث أو أن شعب مالى وصل إلى أمريكا بشهادة كولمبس نفسه، فمن المؤكد - ولا شك فيه - أن الأفارقة منذ فجر التاريخ لم يكونوا أناسًا بدائيين يهيمون فى الغابات والبرارى يلتقطون الثمار، مجرد جماعات من الهمج يأكلون لحوم البشر كما يشاع، وقد نبه الكاتب الكاريبى «ريتشارد مور» فى كتابه «دلالة التاريخ الإفريقى» إلى الجهود الكبيرة التى بذلت لإنكار كل شىء فى التاريخ بالنسبة لإفريقيا وإلى الشعوب الإفريقية، وأن مهمة تزييف التاريخ الإفريقى كانت متعمدة لتبرير تجارة الرق والاسترقاق.

أريد أن أشير بذلك إلى أن هذه الشخصيات العظيمة التى عرفتها إفريقيا فى تاريخها المعاصر اليوم هى من خير ما يظهر وجه الأصالة فى التاريخ الإفريقى؛ لأنهم هم بذواتهم من تربى فى هذه الشعوب التى تحتوى على كل عناصر الحضارات القديمة. إن علينا أن ننظر على هذه الشخصيات ليس فقط من حيث مواقفهم الاستقلالية، وصراعاتهم ضد الاستعمار والظلم، ولكن أيضًا من ناحية السلوك الراقى الذى تميزوا به فى حياتهم الشخصية، وفى علاقاتهم بمن حولهم، أسرًا وقبائل وعشائر، مما لا يمكن أن يكون إلا أنهم ثمار لشجرة ضاربة بجذورها فى أرض خصيبة.

* * *

تقديم الطبعة الأولى

حاولت فى هذا الكتاب ـ وأرجو أن أكون قد وفقت ـ أن ألقى بصيصًا من الضوء على بعض الشخصيات الإفريقية. لا أدعى أنى وفيت بكل تفاصيل حياتهم أو مسيرة نضالهم وكفاحهم، أو أن اختيارى لهم كان أنهم أفضل من غيرهم، وإنما جاء الاختيار لظروف فرضها الواقع الإفريقى واستوجبتها الأحداث.

بعضهم كان اختيارهم لأنهم يرمزون لعادات وتقاليد وطقوس نتعرف منها على التاريخ الخفى للمجتمعات الإفريقية كالكاباكا، وبعضهم شخصيات إفريقية بيضاء مثل الكاتبة الأدبية «نادين جولديمر» الحاصلة على جائزة نوبل، والبعض أفارقة الأصل والجذور، ولكنهم لم يروا إفريقيا ـ مثل الموسيقى صمويل ريدج، وبعضهم قسيسون وأدباء وروائيون.

وقد يكون من غير المنطقى أن يتصدر موضوعات الكتاب، كتاب «عبء الرجل الأسود» لرجل غير إفريقى هو المؤرخ البريطانى الشهير «بازيل ديفيد سون» الذى وهب نفسه للكتابة عن إفريقيا، وكرس حياته للغوص فى أعماقها، وأنارت كتاباته دروبًا فى هذه القارة البائسة. وأشهد أن كتابه الذى أصدره فى نهاية الخمسينيات «إفريقيا تحت الأضواء» غيَّر مسار حياتى. حفزنى الكتاب عندما قرأته أن ألتحق بمعهد الدراسات الإفريقية الذى حدد لى بعدها طريقى المهنى، فتخصصت فى الكتابة عن إفريقيا. وتقمصتنى روح إفريقيا، وانشغلت بها وتوحدت معها، وكما قال «دى بوا» أبو الجامعة الإفريقية: «لقد سيطرت إفريقيا علىَّ. . إنها ليست بلدًا. . إنها عالم متكامل. . عالم خاص بذاته ولذاته، وشىء مدهش ورائع. . إن إفريقيا هى الحدود الروحية للجنس البشرى».

بددت كتابات «بازيل ديفيد سون» ما قاله الأوروپيون الأوائل من أن إفريقيا لم تكن إلا قارة مظلمة فتتت قواها القبلية المفترسة، وأنها لم تخلق آدابًا تميزها، ولا فنونًا تصورها، ولا صناعة. وجاء «بازيل ديفيد سون» يسوق الدليل تلو الدليل يبدد هذا الزعم الخاطئ، ويقيم دلالات مقنعة ومثيرة لم تعرض بهذا الشمول والوضوح من قبل عن الحضارة الإفريقية.

كذلك اخترت أن أنهى الكتاب بشخصية أخرى بريطانية الأصل أيضًا هو «أ. ج. هوبكنز» الاقتصادى الشهير الذى أصدر أهم الكتب فى تاريخ إفريقيا الحديث «التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية»، سجل فيه بالتفصيل جريمة تجارة الرق، أبشع جريمة فى تاريخ البشرية، وهى التى كانت كارثة مدمرة لإفريقيا، فقد أحدثت حملات اقتناص الرقيق دمارًا واسع النطاق، وزادت من الحروب والتمزق والاضطرابات فى المجتمعات الإفريقية، وأفقدت الحياة أمنها، وكانت الخسائر المباشرة والأشد قسوة هى المعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء القارة الذين شحنوا قسرًا وكرهًا عبر المحيط، أو الذين قتلوا أو أصيبوا فى غمار عمليات صيد الرقيق. فى حين أن هذه القوة البشرية الكبيرة التى اقترنت هجرتها بالإكراه والقهر هى التى عمرت العالم الجديد فى الأمريكتين، وقامت بعبء تنمية مواردها، وجعلتها أغنى مناطق العالم وأقواها دون أن يكتسب الرقيق أية حقوق.

لقد شئت أن أختم الكتاب بعرض كتاب «هوبكنز» وهو إن كان يخرج قليلا عن السياق، فهو ليس عن شخصية إفريقية محددة، وإنما عن جموع العبيد الأفارقة وما لاقوة من قهر، ومدى الظلم والمعاناة والاتهامات الباطلة التى دمغت بها المجتمعات الإفريقية التى لم تكن تعانى عجزًا خاصًا أو بلادة مزمنة كما يشاع عنها، ولم يكن أبناؤها دون المستوى العقلى، أو كانوا ذوى طبيعة كسولة خاملة، ولكن الظروف القاسية التى واجهوها وعانوها هى التى أدت إلى حالة البؤس التى تعيشها القارة اليوم. فقد يكون هذا درسًا يستطيع الحاضر أن يتعلمه من الماضى.

وقد صنفت شخصيات الكتاب فى ثلاثة أقسام: **الأول** عن قادة وزعماء، بعضهم حكم بلاده، وبعضهم قاد شعبه ولم يصل إلى السلطة، **والقسم الثانى** عن فنانين وقسيسين وأدباء وروائيين، **والقسم الثالث** اختصصت به سجين الحرية «نلسون

مانديلا» وهو فى نظرى يكاد أن يكون أهم شخصية فى تاريخ إفريقيا الحديث فى الخمسين سنة الماضية. ولم أركز على دوره النضالى، فقد كتب عنه الكثير، وفضلت أن أقدمه من جانبه الإنسانى، ليس كزعيم فحسب، بل إنسان يحب ويعشق ويتزوج، فكان الفصل الأخير عن الحب والنساء فى حياة مانديلا، وعن زوجتيه وينى وجراسا.

إننى أقدم هذا الكتاب إلى القارئ؛ ليكون بمثابة فاتح لشهيته الثقافية والمعرفية؛ وليتولد لديه الشعور بالحاجة إلى معرفة المزيد، فنحن أبناء هذه القارة، وأصولنا الحضارية تعود إليها، وجذورنا الفرعونية مستمدة منها، والنيل ليس ماء فقط يأتينا من الجنوب، ولكنه - ولا يزال - معبر وفود إلينا، وتيار تدفق حضارى وإنسانى.

عايدة العزب موسى

* * *